

## الرواية من منظور الدرس الثقافي

أ. عائشة لعبادلية

جامعة عنابة

Resumé :

Le but de cet article est d'étudier la relation entre le roman et la représentation culturelle, à partir des tendances de la critique occidentale qui a étudié le roman selon la vision post-structurelle telle la critique culturelle et le courant post-colonial, etc. En outre, il révèle la réalité du roman arabe contemporain selon la perspective de la critique culturelle, et L'ouverture du roman arabe sur les principaux concepts de soi et de sa relation avec l'autre, vue que le roman est le genre le indiqué devant le questionnement de l'analyse culturelle.

Mots clés: roman, représentation culturelle, critique culturelle.

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى البحث عن علاقة الرواية بالتمثيل الثقافي؛ انطلاقاً من الاتجاهات النقدية الغربية التي درست الرواية وفق رؤية مابعد بنوية كالنقد الثقافي وتيار ما بعد الكولونيالية وغيرها، كما يكشف عن واقع الرواية العربية المعاصرة من منظور الدرس الثقافي في مواكبتها للمنجز السردي الغربي، لانفتاح الرواية العربية على التصورات الكبرى للذات وعلاقتها بالآخر، وكونها من أكثر الأجناس الأدبية استيعاباً لتفاعل الخطابات وتشابك التمثيلات الثقافية، ومن ثمة كانت أقرب إلى المساءلات التي يهتم بها التحليل الثقافي.

الكلمات المفتاحية: الرواية، التمثيل الثقافي، النقد الثقافي.

أولاً : الرواية والتمثيل الثقافي:

يستثمر التحليل الثقافي استراتيجيات التمثيل المختلفة خاصة تلك التي تتمحور حول السرد بشكل عام والسرد الروائي بشكل خاص "فدراسة التمثيل تمكّننا من الاقتراب من العلاقة المتبسة بين الواقع الملموس الذي تستمد منه الرواية الآثار والعواطف والأنساق وما يؤول إليه من صور ودلالات ورموز لا يمكنها أن تحلّ محلّه أو تفي بجميع أبعاده، لذلك نلغي الرواية في تحقيقاتها المعاصرة تنأى عن الإدعاء بإمكانية تمثيل واقع يوجد خارجها ولا حتى التعبير عن تجربة داخلية كما لو أنّها المرآة التي تكشف لنا طول الطريق"<sup>1</sup> فالرواية باعتبارها جزءاً من السرديات الكبرى\* تقوم بوظيفة تمثيلية للمرجعيات الثقافية على اختلافها فلا يمكن في هذا السياق أن يكون التمثيل منقطعاً عن مرجعياته الثقافية والعرقية والدينية.

وينبغي الإشارة إلى أنّ النموذج الثقافي لا يلغي الخاصية الجمالية للسرد ولكنه في الوقت نفسه لا يفصلها عن سياقاتها الثقافية والرمزية والإيديولوجية، فاستراتيجية السرد تقوم على صيغة نظامية مزدوجة يتداخل فيها الأدبي والثقافي فتستحضر سياقات الهوية والتمثيل والتاريخ والسلطة من أجل بناء رؤية معينة للعالم، وبالتالي فالقراءة الثقافية معنية بمراعاة هذا النظام المزدوج في التأويل فتقوم بتفكيك سياسات التمثيل للكشف عن مضموماتها الثقافية والأيديولوجية دون أن تضحي بالتشكيل الجمالي للسرد.<sup>2</sup> وانطلاقاً من كون الرواية العربية قد استفادت من الممارسات النقدية الراهنة في مجال الدراسات الثقافية بتياراتها الفكرية المختلفة توجب علينا طرح الإشكاليات الآتية:

- ما مفهوم الرواية من منظور النقد الثقافي؟ وكيف كانت الرواية العربية صرحاً للتمثيل الثقافي؟

1 - السرد الإمبراطوري وفعل التواطؤ:

يعدّ التمثيل الثقافي صورة ملغمة تواري انطلاقاً من مرجعياتها انعكاساً لصور نمطية، ووفقاً لهذه الرؤية درس إدوارد سعيد الرواية الغربية، حيث يرى أنّ الأعمال العظيمة لا يعني بالضرورة أن تكون أعمالاً بريئة فحينما صدر كتابه "لأمبريالية والثقافة" في

انكلترا اصطدم بموجة عارمة من المراجعات النقدية - كما يصرح في حواراته "السلطة والسياسة والثقافة" - حيث "شعر الكثيرون بالإهانة من أنّ كاتبة في مرتبة جين أوستن ونقائها يمكن أن تكون لها علاقة بالإمبراطورية والعبودية رغم أنّي لم اخترع ذلك فقد تحدّثت عن ذلك بنفسها. لا أقول إنّ جون أوستن كاتبة أقلّ عظمة بسبب ذلك، كلّ ما أقوله هو أنّ معظم الأعمال الفنية كما كل البشر مرتبطة بما هو بشع، بل وبربري في بعض الأحيان".<sup>3</sup>

يرى "إدوارد سعيد" أنّ القدرة على التمثيل والتصوير ليست متاحة لأيّ كان لأن هذه العملية مقننة وخاضعة اجتماعيا، وهذا يثبته الوعي بالمقيدات المفروضة على التمثيل الثقافي للمرأة مثلا وبالضغوطات التي تواجهها التمثيلات التي تصور الطبقات والأعراق الأدنى مكانة. وقد ركّز النقد في كل هذه المجالات من جنوسة وطبقة وعرق على القوى المؤسساتية في المجتمعات الغربية الحديثة التي تشكل وتضع حدودا على تمثيل ما يُعدّ في الجوهر كائنات خاضعة وهكذا أبقى التمثيل الخاضع خاضعا والأدنى أدنى.<sup>4</sup>

يعتقد إدوارد سعيد بل ويؤكد صحة اعتقاده في كون الرواية وبناء الإمبراطوريات كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا، فروايات كونراد ودانيال ديفو وألبير كامو وجين أوستن وغيرها من الروايات الانجليزية تمارس فعل التواطؤ مع الأمبريالية وتعزّيزها فحسب رأيه لا يمكن فهم "روبنسون كروزو" من دون فهم مطالب الإمبريالية فهو الذي "غادر إنجلترا، غرقت سفينته، وجد نفسه على جزيرة وبعد مرور أيام فقط وحوالي مئتي صفحة في الكتاب يصبح سيد كل ما تطأه قدمه ثم يكشف أنّ ما فعلته هذه الجزيرة بالنسبة إليه، هو أنّها سمحت له بخلق عالمه الخاص بكلمات أخرى الإمبريالية على هذا المستوى مرتبطة بنوع محدّد من الإبداع".<sup>5</sup>

كما تبدو روايات "جوزيف كونراد" في نظر "إدوارد سعيد" تمثيلا للحركة الإمبريالية حيث يوضع "كونراد" القصة على لسان الرواي "مارلو" الذي عين كقبطان باخرة في شركة لتجارة العاج في قلب القارة السوداء حيث يرى "إدوارد سعيد" أنّ اعتراف الرواي "مارلو" في رواية "قلب الظلام" بأنّه كان يشعر دائما بميل عاطفي لملء الفضاءات العظيمة الفارغة على الخريطة يظل هو الحقيقة الغالبة، وهي حقيقة تكوينية أساسية في ثقافة الأمبريالية.<sup>6</sup> فشخصية "مارلو" و"كورتز" تمثل في الواقع الهيمنة الإمبريالية للبيض على الأفارقة السود وعاجهم، فرواية "قلب الظلام" تجسيد للعنصرية والاستعباد في قلب القارة البدائية المظلمة التي كانت مسرحا للنهب الإمبريالي يتضح ذلك أكثر من خلال شخصية "كورتز" الذي ذهب إلى الكونغو مدّعا نشر السلام والمدنية ولكنّ هدفه الرئيس كان نشر الدمار وسفك الدماء واستعباد السكان الأصليين.

لا يفصل "سعيد" الرواية الغربية في القرن التاسع عشر عن الإمبراطورية ومسألة التوسع الإمبريالي، فالأدب لا يمكن أن ينفلت من التاريخ والمجتمع، لذلك كان هدفه الرئيس هو إقامة الروابط وتفكيك العلاقة بين النصوص السردية وبين الإمبراطورية، فلا تتسم الثقافة ولا الإمبريالية بالركود والجمول، وبذلك فإنّ الروابط بينهما ستكون حتما كتجارب تاريخية حيوية متشابكة ومعقدة. فمن منطلق فلسفي ومنهجي تبدو الأشكال الثقافية هجينة ومولّدة مشوبة وغير نقية لذلك يرى "إدوارد سعيد" أنّ الأوان قد حان في مجال التحليل الثقافي لدراسة هذه الأشكال وربطها بواقعها الفعلي.<sup>7</sup>

ولا يعني "سعيد" بأنّ الرواية -أو الثقافة بالمعنى الواسع- قد سبّبت الإمبريالية بل إنّ الرواية، من حيث هي حمولة ثقافية غير قابلة للانفصال عن الإمبريالية "إنّ الرواية هي أكثر الأشكال الأدبية الرئيسية حداثة زمنية، وإنّ نشوءها هو الأكثر قابلية للتأريخ وحدوثها هو الأكثر غربية، ونسقتها المعياري للسلطة الاجتماعية هو الأكثر بنية، ولقد حصّنت الرواية الإمبريالية إحداها الأخرى إلى درجة عالية يستحيل معها، تبعا لما أطره قراءة إحداها دون التعامل بطريقة ما مع الأخرى. وما هذا

بكل شيء؛ فالرواية شكل ثقافي اشتعالي تدميجي شبه موسوعي وفيها يعبأ أمران: آلية للحبكة بالغة التقنين ونظام كامل من الحالة الاجتماعية يعتمد على مؤسسات المجتمع الطباقية القائمة وعلى سلطتها وقوتها.<sup>8</sup> وبذلك فإن قراءة السرد الغربي المتواطئ مع الإمبراطورية على نحو طباقية يقتضي تفكيك آليات الهيمنة في الخطاب الثقافي للإمبريالية من جهة وقراءة الجانب الآخر المضاد أو الطباقية والمتمثل في قراءة المقاومة الوطنية للإمبريالية بمعنى دور الثقافة في تكوين الاستعمار الإمبريالي ودورها في عملية دحره ومقاومته في الوقت ذاته.

وقد اعتمد "سعيد" في تفكيكه للسرد الغربي المتورط مع الإمبريالية والذي لم يستطع كبت الرؤى النمطية الجامدة والمغلقة التي تموضع الآخر في حيز الهامشي على القراءة الطباقية المستوحاة من الموسيقى-باعتباره عازفا وقائد أوركسترا- حين نعود بالنظر إلى سجل المحفوظات الإمبريالي، نأخذ بقراته لا واحدا بل طباقيا بوعي متآين للتاريخ الحواصري الذي يتم سرده ولتلك التواريخ الأخرى التي يعمل ضدها -ومعها أيضا- الإنشاء المسيطر في النقطة الطباقية للموسيقى العريقة الكلاسيكية الغربية تتبارى وتتصادم موضوعات متنوعة إحداها مع الأخرى دون أن يكون لأي منهما دور امتيازي إلا بصورة مشروطة مؤقتة، ومع ذلك يكون في التعدد النغمي الناتج تلاؤم ونظام تفاعل منظم يشتق من الموضوعات ذاتها... وفي اعتقادي أننا نستطيع بالطريقة ذاتها أن نقرأ ونؤول الروايات الإنجليزية التي يتشكل تعالقتها.. بالتاريخ المحدد للاستعمار والمقاومة وأخيرا القومية الأصلانية، عندئذ تنبثق سرديات بديلة وتصبح ذواتا مأسسة أو مستقرة إنشائيا<sup>9</sup>

بهذا المعنى الطباقية-الذي يكشف عن علاقة الرواية بالحركات الاستعمارية- يشترك التحليل الثقافي عند "إدوارد سعيد" ونقاد آخرين مثل "هومي. ك. بابا" و"غياتاري سيبفك" و"فريديريك جيمسون" وغيرهم في ارتياد الأفق الذي يستعيد فيه النقد هدفه الإنساني الذي يكمن في كشف الستار عن أساليب الهيمنة الإمبريالية والتميز العنصري الذي سيطر على الثقافة الغربية، وبالتالي فإن التحليل الثقافي وفقا لهذه الرؤية يستند إلى مساءلة جديدة لمفهوم الهيمنة الاستعمارية، ذلك أن أغلب النقاد والدارسين أهملوا السياق القومي والعلمي لتمثيلات الرواية؛ إذ يبحث في الدور الامتيازي للثقافة في التجربة الإمبريالية الحديثة.<sup>10</sup> وهو ما يعني تورط السرد الروائي الكولونيالي في تعزيز القوة الإمبريالية وإقصاء الآخر وتهميشه. فالخطاب الكولونيالي كما يصفه "هومي. ك. بابا" جهاز من أجهزة القوة، وظيفته الاستراتيجية خلق فضاء لشعوب خاضعة عبر معرفة الاختلافات العرقية والثقافية والتاريخية وإنكارها، لذلك تكمن غايته في تحقيق تأويل سلمي ونمطي للمستعمر بوصفه شعبا منحطا انطلقا من أصله العرقي وذلك لتبرير فعل الهيمنة عليه وتوجيهه.<sup>11</sup> فاستراتيجية الخطاب الكولونيالي قائمة أساسا على تمثيل الصور النمطية المشوهة للمستعمر وتثبيت موقعه انطلقا من الاختلاف الثقافي والعرقي والحضاري على أنه التابع والمهتمش الذي يجد نفسه مضطرا لتمثيل الذات وفق استراتيجية ثقافية مضادة للحد من انزياحات الهوية.

## 2- الرواية المضادة والمقاومة الثقافية:

ظلت قضية الإمبراطورية مطروحة لدى مجتمعات ما بعد الكولونيالية على الرغم من تحررها وحصولها على استقلالها السياسي، ذلك أن الشعوب التي كانت خاضعة للإمبراطورية كانت في حاجة للردّ بالكتابة على المركز الإمبراطوري بعد تفكيك قوته سياسيا.<sup>12</sup> ومن هذا المنطلق تستدعي الكتابة ما بعد الكولونيالية استخدام لغة المركز بعدّها حمولة ثقافية يمكن توجيهها بشكل مضاد ومقاوم للتعبية التي فرضها الاستعمار تأكيدا على استرجاع هويتها الثقافية. لذلك فكتابة الرواية الغربية لم تكن لتعكس التواطؤ مع الإيديولوجيات المسيطرة فحسب، ولكنها من منظور طباقية تعمل بشكل مضاد للهيمنة المركزية.

وانطلاقا من هذه الرؤية الإدواردية المزدوجة، قدم "بيل أشكروفت" وزميله في مؤلفهم "الردّ بالكتابة" "قراءات تشخيصية لنصوص روائية لتوضيح ملامح الكتابة ما بعد الكولونيالية التي تكمن في إسكات وتهميش الصوت ما بعد الكولونيالي

بواسطة المركز الإمبراطوري وإقصاء هذا المركز داخل النص واستيعاب لغته وثقافته، حيث يتم التعبير عن هذه الملامح بطرق متعدّدة في نصوص مختلفة إما من خلال عمليات التدمير الرسمية أو من خلال الصراع على مستوى الموضوع، وتوضح هذه الملامح بتفكيك أفكار القوة المتأصلة في المركز والهامش، وهو ما يتضح في كتابات مجتمع جنوب إفريقيا إذ غالبا ما تعبّر روايات هؤلاء الكتّاب على صمت الفرد إثر هيمنة السلطة الكولونيالية على وسائل الاتصال وما تمارسه من رقابة على الصحف والمجلات وما تشكله من ضغط على المبدعين بفرض اللغة الإنجليزية على عالمهم، ونظرا للرقابة الممارسة على الكتابة الإبداعية فإن جميع الكتابات في جنوب إفريقيا تعدّ إما شكلا من أشكال الاحتجاج أو الإذعان غير أنّ أغلبها تمثل مواقف المقاومة والمعارضة، يبدو ذلك جليا في كتابات السود وكتابات البيض إلى حدّ ما، إذ تعبّر كتاباتهم عن معارضتهم للتمييز العنصري والنظام القمعي مثل كتابات "أندريه برينك" (Andé Brink) و"بريتون بريتنباخ" (Breyten Breytenbach) التي تؤدي وظيفة الاحتجاج وعدم الإذعان.<sup>13</sup>

وقد تطرق بيل أشكروفت وزميله إلى استراتيجيات النص في كتابة ما بعد الكولونيالية المتمثلة أساسا في اللغة من جميع الجوانب سواء أتعلق الأمر بإقصائها وإنكارها أو باستيعابها وإعادة بنائها أو بأحاديثها وتعدّدها. واعتمادا على مركزية اللغة والأساليب المتنوعة التي بموجبها تنفك ثنائية المركز والهامش تمت قراءة بعض الروايات كرواية "نكوسي" (تزاوج الطيور) ورواية "نايول" (الرجال المقلدون) إذ توضح هذه النصوص استحالة تجنب القوة التدميرية والتهميشية للمركز والرغبة في إقصاء السلطة المهيمنة، ولا يكفي الاعتداء الجنسي أو النجاح الاجتماعي لتجنب قوة التهميش الموروثة التي تقمع الشخصيات وتقهرها، كما تمثل كل من قصة "انطوني" القصيرة (شارع ساندر) ورواية "فيندلي" (وجوده لم يكن مرغوبا في الرحلة) تطور استراتيجيات التدمير لتحويل حدود الوضع ما بعد الكولونيالي إلى مصدر لأصالتها وقوتها من حيث الشكل والموضوع، كما أن كل من رواية "جانيت فريم" (حافلة الألباء) ورواية "ناريان" (بائع الحلويات) توضح على اختلاف أسلوبهما إمكانية تفكيك الأفكار المعرفية للمركز بمجرد استيعاب اللغة لتعبّر هذه الأفكار فيما بعد عن مجتمع لم يعد مدركا بوصفه آخر وإنما بوصفه واعيا بذاته وقادرا على تسجيل الإطار المفهومي الذي تتحدّد داخله قوة المركز.<sup>14</sup>

فالشيء الذي يخشاه الكولونيالي هو الوعي الذي يتشكل عند الشعوب المستعمرة من حق في المعرفة والتحرّر ورفض مقولات ثقافة الإمبراطورية، لأن خلف الوعي تكمن استعادة القوة واكتساب مشروعية المساواة مع المركز ولا يتأتى ذلك إلا بالإمساك بلغته واستيعابها لإعادة تشكيلها بصيغة مضادة. "لذلك يحمل كتّاب العالم الثالث في مرحلة ما بعد الإمبريالية ماضيهم في أعماقهم ندوبا لجراح مذلة وتحريضا على خلق ممارسات مختلفة، ورؤى للماضي تملك الطاقة على التنقيح وتنزع نحو مستقبل ما بعد استعماري، وتجارب قابلة للحاح لإعادة التأويل والتوزيع والمركزة، فيما ينطق الأصلاحي الذي كان صامتا في السابق ويمارس الفعل على أرض استعادها كجزء من حركة مقاومة شاملة بين من المستعمر المستوطن"<sup>15</sup> فالسرد الروائي يستخدم في هذه الحالة كاستراتيجية مضادة للقوة والمهيمنة في سياق الصراع بين المركز والهامش ليعبّر عن المقاومة الثقافية للإمبريالية ومعارضة استراتيجياتها.

ثانيا - واقع الرواية العربية في ضوء الدرس الثقافي :

أولت السرديات العربية في مرحلة تطورها وازدهارها خلال العقد الأخير من القرن العشرين اهتماما كبيرا بالمكون الوصفي والسرد في قراءتها للنص الروائي متأثرة في ذلك بتوجهات الدراسات السردية الغربية خلال الستينيات في أوروبا وفرنسا على وجه التحديد، فكان أن توجهت السرديات توجها وصفيا علميا يتعامل مع الخطاب السردى انطلاقا من بنياته اللفظية

للإمساك بقوانين النص السردى الداخلية دون النظر إلى بعده الثقافى وما يتضمنه من رموز وأنساق وخطابات وخصوصية جمالية وذلك بفعل النزعة النبوية التي اعتُبرت فيما بعد انغلاقية.<sup>16</sup>

وفي محاولة لتجاوز المنجز النبوي السردى والإفادة من توجهات ما بعد النبوية انفتحت السرديات العربية على أفق جديد يخرج عن حدود النسق المغلق إلى الأنساق الخارجية المنفتحة على الثقافى والسياسى والأيدولوجى وغيرها مما تضمنه الخطابات السردية، وقد تجسّد هذا التحول عربيا في مقاربات عدّة باحثين عكفوا على قراءة السردية العربية والرواية تحديدا مستفيدين من الدراسات الثقافية خاصة تيار النقد الثقافى وما تفرّع عنه من حقول معرفية نقدية كنقد الخطاب الكولونىالي والنقد النسوي، والتاريخانية الجديدة وغيرها.

ومن بين الجهود الفعّالة التي مثلت جهدا نقديا تحليليا قائما على رؤية ثقافية للظاهرة السردية وخاصة الرواية والتمثيل السردى؛ المشروع النقدى للباحث العراقى عبد الله إبراهيم من خلال موسوعته في السرد العربى، إذ انفتحت الرواية العربية على توجهات جديدة كتمثيل التاريخ وتمثيل التجربة الاستعمارية وتمثيل الهوية الأنثوية وغيرها. حيث يتوقف الباحث في الفصل الثانى من الكتاب الرابع عند الأبوية الذكورية والسرد التفسيري في روايات نجيب محفوظ التي كرسّت مركزية الذكورة في عالم الأنساق المغلقة الثابتة إذ تعبر تجربته الروائية عن "نسق ثقافى اجتماعى يميل إلى الثبات والإحساس باليقين والحلول النهائية وهو ما جرى تمثيله سرديا في الثلاثية وما قبلها من روايات، إلا أنّ مآزقه ظهر حينما تغير ذلك النسق دون أن يواكبه تغيير حقيقى في السرد لديه فقد علّق محفوظ كما خلص الخراط بين نسق ثقافى - اجتماعى انتهى وأسلوب معبّر عنه ظلّ محفوظ متمسكا به."<sup>17</sup>

يشتغل عبد الله إبراهيم على التمثيل السردى للأحداث والشخصيات والخلفيات الزمنية والفضاءات انطلاقا من اتصالها بمرجعياتها الثقافية، ذلك ما تجلّى في الفصل الرابع من الكتاب الرابع حيث ركز الباحث اهتمامه على السرد وتمثيل الهوية الثقافية في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح، إذ يقوم السرد بتمثيل التوتر الحضارى بين الشرق والغرب. كما تطرق إلى تمثيل المخيال الصحراوى والمجتمعات الهامشية في روايات إبراهيم الكوني فضلا عن تمثيل الاتصال بين الطبيعة والثقافة في رواية "فساد الأمكنة" لصبرى موسى وغيرها من الروايات التي أظهرت قدرة كبيرة على تمثيل المرجعيات الثقافية "وهذا أمر يكشف بأنّ التمثيل السردى لم يقتصر على ضرب محدّد من ضروب التمثيل إنّما تعدّى ذلك إلى تنوعات خصبة جعلت الرواية العربية تنخرط في تأويل المرجعيات وتقدّم لها تمثيلا متعدّدة أضفت عليها قيمة فنية جديدة جعلتها في مقدّمة الأنواع الأدبية الجديدة التي استأثرت باهتمام كبير ببناء على الوظائف المتنوعة التي قامت بها"<sup>18</sup>

يوجّه عبد الله إبراهيم اهتمامه في الكتاب الخامس من الموسوعة إلى السرد والرؤية الأنثوية للعالم لما شهدته الرواية النسوية من أهمية ملفتة للنظر في الربع الأخير من القرن العشرين مركزا على مركزية الذكورة، ولم يكن اهتمامه في هذا السياق تقديم تاريخ للأدب الروائى الذي تكتبه المرأة العربية -على حدّ قوله- وإنما كان هدفه "الوقوف على الظاهرة الأكثر أهمية فيما نرى وهي ظاهرة الوعي النسوي بالذات وبالعالم، ثمّ الرؤية السردية الأنثوية التي ظهرت نتيجة لذلك، وهي في عمومها رؤية ترفع اعتراضا جوهريا -معلنا أو مضمرا- ضدّ الرؤية الذكورية التي صاغت الوعي الاجتماعى العام صوغا أحاديا يفتقر إلى التنوع والتعدّد."<sup>19</sup>

وانطلاقا من هذه الرؤية توقف الباحث عند الهوية الأنثوية النكرة كما تكشف عن ذلك رواية "كم بدت السماء قريبة" لبتول الخضيرى، والرد بالسرد أو السرد المعارض لفكرة الذكورة الشرقية القائمة على القهر المتعمد للأنثى كما جاء في رواية "خارج الجسد" لعفاف البطاينة، وغيرها من الروايات العربية النسوية التي جسّدت الوعي الأنثوي بالذات وبالأخر الذكورى كرواية

هيفاء بيطار "امرأة من طابقين" وباهية طرابلسي في روايتها "امرأة ليس إلا" وعلوية صبح في "مريم الحكايا"، وإلهام منصور في "أنا هي أنت" ومليكة مقدّم في روايتها "المتمردة". \*

ينتقل عبد الله إبراهيم من مركزية الذكورة إلى مركزية الجسد الأنثوي باعتباره مكونا أساسيا من مكونات الرواية النسوية العربية وذلك في عدة روايات كرواية "امراتان في امرأة" لنوال السعداوي؛ حيث تكشف الرواية عن علاقة الأنتى بجسدها ومحاولة امتلاكه تتأنتى هذه الرغبة بسبب التكوين المزدوج للجسد الأنثوي كونه ليس ملكا للذات الأنثوية فحسب وإنما خاضعا للأعراف والتقاليد الثقافية. بينما يظهر الاحتفاء بالجسد في رواية "نخب الحياة" لأمال مختار كونه متعة خالصة ينبغي الاحتفاء والتمتع بها خارج الأطر الثقافية. وغيرها من الروايات العربية النسوية التي جرى فيها التمثيل السردى للعالم الأنثوية حيث يلاحظ عبد الله إبراهيم من خلال تحليله هذا أنّ "المرجعيات الثقافية وجدت لها حضورا مثلته الأنساق الثقافية السائدة التي ثبتت صورا تعارضية بين الرجل والمرأة من ناحية الأدوار والوظائف والأهمية والقيمة والكفاءة، وقد عالج السرد النسوي هذا الموضوع لا بوصفه مشكلة فحسب إنما ذهب إلى عرض طبيعة التنازع الثقافي طارحا بدائل تتصل بقلب الأدوار والصراع على المواقع"<sup>20</sup>

ويفتح عبد الله إبراهيم أفقا آخر من آفاق التمثيل في كتابه "التخييل التاريخي، السرد الإمبراطوري والتجربة الاستعمارية" باحثا في التحول من الرواية التاريخية إلى التخييل التاريخي بهدف إعادة دمج الرواية والتاريخ في هوية سردية جديدة مستفيدا من مقولات النظرية ما بعد الكولونيالية حيث تمّ طرح العلاقة بين التمثيل السردى والإمبراطورية والتخييل التاريخي مركزا على التجربة السردية عند "أمين معلوف" وخص الفصل الثاني للتهجين السردى وتمثيل الأحداث التاريخية في روايات "بنسالم حميش". كما خصص الفصل السابع من هذا الكتاب للتخييل السردى والتمثيل الاستعماري معتمدا على تصور كل من إدوارد سعيد وهومي. ك. بابا في تفكيك الخطاب الاستعماري حيث توقف عند نماذج روائية بهدف الكشف عن كيفية تمثيل التجربة الاستعمارية كرواية "خارطة الحب" لـ "أهداف سويف" ورواية "واحة الغروب" لـ "بهاء طاهر".

وما يمكن قوله من خلال هذا العرض العام لجزء من الممارسة النقدية للباحث عبد الله إبراهيم الخاص بالرواية العربية الحديثة أنّه تجاوز المنجز البنيوي السردى وفتح آفاق النقد الروائي على التوجهات ما بعد البنيوية معتمدا على مفاهيم وإجراءات الدرس الثقافي وتياراته المتعددة كتيار نقد الخطاب الاستعماري والنقد النسوي، مضيئا عتمة النص الروائي الذي يتجاوز حسب رؤيته النقدية بُعد الأدبي الجمالي إلى كونه ظاهرة ثقافية منفتحة على تصورات كبرى للذات والآخر والعالم، وبالتالي فإن الرؤية المنهجية التي تحدت لدى الباحث من خلال منطلقات فكرية معرفية ذات بعد ثقافي منذ كتابه المطابقة والاختلاف هي ما ميز مساره النقدي في دراسة الرواية الحديثة والظاهرة السردية والثقافية بصفة عامة.

وفي سياق التمثيل السردى قدّم الباحث "محمود محمد أملودة" دراسة في ضوء النقد الثقافي عن تمثيلات المثقف في السرد العربي الحديث واتخذ من الرواية الليبية نموذجا باعتبارها "المظهر الحقيقي للطبقة المتوسطة التي ينتمي إليها المثقف، وقد ارتبطت منذ انطلاقتها بموم الوطن وقضايا المجتمع وشواغل المواطن وكان الحضور الأقوى في شخصيات التخييل السردى الليبي للمثقف كونه المثل للطبقة المتوسطة التي كان لها الفضل في انبعاث الحراك الثقافي والسياسي ومن ثمّ الاجتماعي والاقتصادي في ليبيا منذ الاستقلال حتى أواخر التسعينات من القرن الماضي، وقد غطت الرواية الليبية حراك المثقف طوال هذه الفترة وأظهرت تنوعاته في نماذجه وأدواره بشكل دقيق جدّا الأمر الذي يدفع إلى القول إنّ الرواية الليبية تكاد تكون خطابا للمثقفين بعضهم مع بعض"<sup>21</sup>

فشخصية المثقف تكتسب بعدها الخاص في الرواية العربية عامة والليبية على وجه خاص، إذ استلزم البحث في هذا النوع من التمثيل التوقف عند النصوص السردية التي تمثلت شخصية المثقف في المنجز الروائي الليبي حيث تطرق إلى مفهوم المثقف في إطاره العام والخاص المرتبط بالنخبة والمجتمع والسلطة وشخصية المثقف الفاعل والمثقف في رواية الاستقلال كما تتبع البعد الدلالي السردية لشخصية المثقف انطلاقاً من كونه يطرح قضايا من واقع يرفضه أحياناً وينشده أحياناً أخرى.

كما قدمت الباحثة الأدرنية "شهلا العجيلي" في كتابها الخصوصية الثقافية في في الرواية العربية مقارنة للنص الروائي العربي - في المرحلة الواقعة بين حرب الخليج 1991 الثانية والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين- وذلك وفق منظور النقد الثقافي الذي يتسع لنقد ما بعد الاستعمار وتفكيك الخطاب الاستعماري. حيث يرتبط مفهوم الخصوصية الثقافية حسب "شهلا العجيلي" بمفهوم الهوية التي تتكون من أشكال محدودة الخصوصية الإثنية وأخرى واسعة كالخصوصية القومية، فهذه الأخيرة تتعالى على العرق والدين ولكنها تخلق خصوصية ثقافية، لهذا ركزت الباحثة على الخصوصيات الثقافية المتمثلة في النسوية والقومية والإثنية الدينية حيث "نشرت الخصوصيات الثقافية الثلاث النسوية والقومية والإثنية بعلاقتها بسلطة واحدة هي سلطة النسق الثقافي بالانضواء تحت لوائها أو بمواجهتها"<sup>22</sup> وبالتالي كشفت هذه الدراسة عن الأنساق الثقافية التي تتحكم في سياسات الهوية الثلاث في الرواية العربية.

كما اتخذ إدريس الخضراوي في كتابه "الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار" الرواية المعاصرة موضوعاً للقراءة في ضوء مرجعيات النقد الثقافي وتياراته المتعددة كخطاب ما بعد الاستعمار ساعياً إلى تقديم مقترحات جديدة في قراءة الرواية العربية تستفيد من التحولات التي تعرفها النظرية الأدبية والانفتاح الذي يميز ممارستها الزاهنة على حقول معرفية متنوعة كحقل الدراسات الثقافية وما يندرج في إطارها من تيارات فكرية ونظرية كتيار ما بعد الاستعمار.<sup>23</sup> حيث تطرق "إدريس الخضراوي" إلى المراحل التي مرت بها دراسة السرديات العربية في مرحلة تطورها وازدهارها من النزعة البنيوية إلى تجاوز النسق المغلق كالسرديات التفاعلية من النص إلى النص المترابط لسعيد يقطين وقراءات أخرى للسردية العربية استفادت من الدراسات الثقافية خاصة حقل نقد الخطاب الاستعماري كمقاربات الناقدان العراقيان عبد الله إبراهيم ومحسن جاسم الموسوي حول ألف ليلة وليلة والرواية العربية؛ تلك القراءات المستندة إلى الخلفية الثقافية ذهب أصحابها إلى أنّ الوضع الاستعماري قد تحكّم في التنظيرات النقدية المبكرة للنص الروائي العربي ليس كإطار تاريخي فحسب وإنما بما يعنيه من مقاومات ونضال ضد الهيمنة وحوار بين الثقافات وتحديد للهوية، ولذلك يشير إلى أنّ هذا التوجّه في قراءة النص الروائي "يمكن أن يكون مخصباً إذا عنيت بلحظة القلق الإنساني الشامل وفكرت في المرجعيات الثقافية التي يتحرك في خضمها الروائي والمثقلة بالصراعات والتوترات والاضطرابات بين الهويات الثقافية، وأرست فرضيات جديدة لقراءة المتخيّل المشحون بالرموز والدلالات والأنساق التي بموضع من خلالها الكاتب ذاته قياساً إلى الآخر بشكل تستثمر فيه تراكماتها السابقة ضمن شروط ثقافية محفزة بشرط التلقي الجمالي دون أن يمسّ ذلك بعلميتها."<sup>24</sup>

لذلك فهذه الفرضيات الجديدة هي التي حوّلت دراسة الأدب باتجاه خارج النص وباسم جمالية لا تقول بأنّ الأدب معني بالتعبير عن واقع سابق فحسب، وإنما تقول كذلك بأنّ النصوص الثقافية التي تتخلّل الحكبات الروائية بقدر ما يصوغها الروائي في قالب سردي داخل قصة فإنها أيضاً تندخل في توجيه رؤية هذا الزاوي للعالم وهو ما يتطلب وعياً نقدياً تأويلياً مغايراً ومزوداً بآليات فكرية لمعالجة قصور القراءات السابقة التي تنظر إلى النص على كونه ترتيبات لغوية وعلامات سيميائية.<sup>25</sup> إذ يتعذر فهم الرواية وتأويلها بعيداً عن السلطة سواء أكانت في حالة تواطؤ معها أو في الحالة المضادة والمعارضة لكل أشكال

الهيمنة. وانطلاقاً من هذه الرؤية قدّم "إدريس الخضراوي" قراءة لعدّة روايات انطلاقاً من مرجعياتها الثقافية وعلاقتها بالواقع والخيال بأشكال السلطة التي تتحكّم في علاقة الذات بالآخر.

كما تطرقت "بشرى موسى صالح" في مؤلّفها الموسوم بـ"بويطيقا الثقافة إلى نماذج تطبيقية بدءاً" بفاطمة المزيّسي - التي ترجمت مؤلّفاتها إلى عدّة لغات - فاختارت الباحثة سيرتها الروائية "نساء على أحنحة الحلم" التي مارست تحويراً أدبياً سردياً تخيالياً لعالم الحرّيم في النصف الأوّل من القرن العشرين في المغرب. حيث تكشف الكاتبة العالم الخفي للحرّيم وحدوده، ولهذا ركّزت الدراسة على قراءة نسق الحدود من منظور ثقافي - عبر فصول الرواية - حيث تبدو الرغبة في خرقه وتجاوزه متتبعة الدلالات المعبّرة عن الصراع بين احترام الحدود وكسرها في هذا العمل السردى انطلاقاً من الشخصيات والمكان "إذ تبدو أفعال كسر الحدود لصيقة بعالم الحرّيم فكانت تلك الأفعال معادلات رمزية لانتفاضات المهتمّش والقاصي والبعيد عن دفّ السلطة المتمثلة بعالم الرجل"<sup>26</sup>. وقد استعانت الباحثة بآليات السيميائية لفكّ دلالات العلامات والكشف عن الأنساق الثقافية للسرد السري ذاتي في محاولة لقراءة صورة الحرّيم الثقافي المتمثل في المرأة العربية المغربية عبر التخييل الروائي للكاتبة.

كما تطرقت الدراسة إلى رواية العراقي "علي بدر" "بابا سارتر" بالكشف عن الأنساق الثقافية المخبوءة خلف البناء السري عبر شخصيات الرواية وأحداثها حيث تسدّ الهوية بين الراقي والشعبي بدءاً "من عنوانها، كما تكشف هذه القراءة عن العلل النسقية الخفية التي تكمن وراء الكثير من الأفكار والفلسفات المهيمنة التي تلاعبت بها وكان السرد بمثابة العلبة السوداء - على حدّ رأي الدارسة - التي استطاع السارد بواسطتها البوح بتلك الأسرار وصياغة المنظور الثقافي القائم على التعدّد والاختلاف.<sup>27</sup> وبالتالي كشفت الباحثة عن النسق المهيمن وعن المسكوت عنه وحاورت ما وراء الجانب الخفي لشخصيات الرواية وأحداثها.

كما كانت الدراسة التي قدّمها الباحث المغربي محمد بوعزة "سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف" في إطار اهتمامه بصياغة تصور للسرديات الثقافية في محاولة منه لتجاوز الأفق البنيوي للسرديات وتوسيع مجال الدراسة لتفتح على الأسئلة المعرفية والمرجعيات الثقافية لطبيعة السرد، وهو بذلك لا يلغي فعالية المنجز البنيوي في الكشف عن بنيات النصوص السردية، وإنما يهدف إلى إعادة تكييفه في أفق ثقافي يتجاوز مستوى الوصف البنيوي نحو عملية التأويل والتفكيك بالبحث في المرجعيات الثقافية لدينامية السرد وقوته الرمزية في تشفير العالم واستنطاق سياسات التمثيل في النص السردى.<sup>28</sup>

وقد قدّم محمد بوعزة قراءات تطبيقية لنصوص روائية عربية ركّزت على تحليل أنماط السرديات البديلة (سرديات ما بعد الاستعمار) التي تطرحها النصوص الروائية في استراتيجياتها الخطابية والسردية وتفكيك خطاب السلطة وأشكال التهميش والقهر مستفيداً من مقولات النظرية ما بعد الكولونيالية وذلك في عدّة روايات كرواية "دمية النار" لبشير مفتي و"الساحة الشرفية" لعبد القادر الشاوي، و"كهوف هيدرا هوداهوس" لسليم بركات. ففي هذه النماذج الروائية "يقع السرد في صميم النزاع على استعمالات الماضي من أجل تسوية الشرعية (استراتيجية السلطة) أو نزع الشرعية (استراتيجية المقموع) تتم هذه الاستراتيجية في رواية "دمية النار" بإعادة كتابة قصص الثورة، وإحياء الروايات المنسية لضحايا السلطة المعارضين للقمع، وإسماح الأصوات البديلة، وفي رواية "الساحة الشرفية" بتضمين رسائل ويوميات المعتقلين السياسيين التي تخترق سرد السلطة، وتفكّكه كاشفة مزاعمه في نبرة ساخرة تمكّمية."<sup>29</sup>

كما خصص مبحثاً للرواية الحضارية للكشف عن الآثار الخطابية المقترنة بسياسات الغيرية والأخرية من خلال ما يجسده الخطاب السردى من انزياح عن سلطة النسق الحضاري من خلال العودة المعكوسة من الشمال إلى الجنوب كما في رواية



"مصاييح مطفأة" لأحمد الكبير مما يترتب عنه تحول في سياسات التمثيل من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف. في حين تنتهك رواية "روائح ماري كلير" للحبيب السلمي النسق الفحولي القائم على علاقات الهيمنة الكولونيالية الذكورية لتقدم منظورا ثقافيا قائما على أنسنة العلاقات بين الرجل والمرأة خارج النسق الكولونيالي وسياسات الجنس القائمة على علاقات القوة.<sup>30</sup>

وفي مبحث السرد والقوة يكشف محمد بوعزة عن السرد المضاد أو الرد بالكتابة على السلطة والآخر الكولونيالي في روايتي "ترانيم البردي القديم" لآمال النخيلي ورواية "آيلان أو ليل الحكيم" لإدمون عمران المليح مستفيدا من الأطروحة ما بعد الكولونيالية القائمة على ضرورة امتلاك المعرفة التي تقود الأصلاحي إلى اكتساب قوة المقاومة والتحرر من هيمنة الآخر والخروج عن حالة الصمت التي تفرضها السلطة. كما يستنطق الباحث أسئلة الهوية في السرد السيرذاتي كرواية "ثلاث وجوه لبغداد" لغالب هاليسا\*.

أفاد محمد بوعزة في رؤيته المنهجية لتفكيك النصوص السردية وتأويلها من مقولات النقد الثقافي والنظرية ما بعد كولونيالية وهو يقترب في ممارسته النقدية من - كما يقر في نهاية المقدمة - النماذج النقدية العربية ذات المرجعيات الثقافية كأعمال عبد الله الغدامي ومعجب الزهراني عبد الله إبراهيم ونادر كاظم ويحي بن الوليد وماري تيريز عبد المسيح وإدريس الخضراوي وغيرهم.

تعكس نماذج الدراسات السابقة واقع الرواية العربية المعاصرة في ضوء النقد الثقافي وفروعه، حيث انفتح النقاد العرب على اتجاهات ما بعد البنيوية تجاوزا للسرديات البنيوية المغلقة للإحاطة بالنص الروائي من جميع جوانبه انطلاقا من خصوصيته السردية للإمساك بدلالة الخطاب. ولعل هذا التجاوز كان نابعا من تعدد المنطلقات المعرفية والفكرية للنقاد العرب وبالتالي التعدد في الرؤية المنهجية استجابة مع التطور الحاصل في منجزات السردية الغربية وما شهدته الرواية العربية المعاصرة من انفتاح على القضايا الراهنة التي تشغل الذات في علاقتها بالآخر على جميع المستويات وقدرتها الفعالة على تمثيل المرجعيات الثقافية والتاريخية والاجتماعية، مما يتيح للدارس مقارنة النص الروائي وفقا لرؤى منهجية متعددة.

- الهوامش :

<sup>1</sup> - إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2012، ص 64.

<sup>2</sup> - محمد بوعزة: سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1. 2014، ص 37.

<sup>3</sup> - إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، تقديم: غاوري فسواناثان، ترجمة: نائلة قليقلي حجازي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2008. ص222.

<sup>4</sup> - إدوارد سعيد: الثقافة والأميرالية ترجمة: كمال أبوديب، دار الآداب، بيروت، ط3، 2004، ص148.

<sup>5</sup> - إدوارد سعيد: السلطة والسياسة والثقافة، تقديم: غاوري فسواناثان، ترجمة: نائلة قليقلي حجازي. ص276.

<sup>6</sup> - إدوارد سعيد: الثقافة والأميرالية، ص:228.

<sup>7</sup> - المرجع نفسه، ص85.

<sup>8</sup> - المرجع نفسه، ص193.

<sup>9</sup> - المرجع نفسه، ص117.

- <sup>10</sup> - إدريس الخضراوي: السرد موضوعا للدراسات الثقافية، نحو فهم لعلاقة الرواية بمجدلية السيطرة والمقاومة الثقافية، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، مج2، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ع7، 2014، ص119.
- 11- هومي.ك.بابا: موقع الثقافة، ترجمة نائر ديب، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2006، ص141.
- <sup>12</sup> - بيل أشكروفت وآخرون: الردّ بالكتابة، النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص: 24.
- <sup>13</sup> - المرجع نفسه، ص: 148.
- <sup>14</sup> - المرجع نفسه، ص 192. وللاطلاع على تفاصيل الروايات وتحليلها ينظر الفصل الثالث من الكتاب من ص: 139 إلى 184.
- <sup>15</sup> - إدوارد سعيد: الثقافة والأمبريالية، ص: 270.
- <sup>16</sup> - إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار: ص19.
- 17 - عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2008، ص67.
- 18- المرجع نفسه. ص174.
- 19- المرجع نفسه: ص311.
- \* للتوسع ينظر: عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ج2، الكتاب الخامس. 245 وما بعدها.
- 20- المرجع نفسه: ص409.
- <sup>21</sup> - محمود محمد أملودة: تمثيلات المثقف في السرد العربي الحديث، الرواية البيئية أنموذجا، دراسة في النقد الثقافي، عالم الكتب الحديث، إربد، ط2010، ص1، ص289.
- <sup>22</sup> - شهلا العجيلي: الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط1، 2011، ص: 45.
- 23- إدريس الخضراوي: الرواية العربية وأسئلة ما بعد الاستعمار. ص18.
- 24- المرجع نفسه، ص: 23.
- <sup>25</sup> - المرجع نفسه، ص: نفسها.
- <sup>26</sup> - بشرى موسى صالح: بويطيقا الثقافة، نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1 2012، ص93.
- <sup>27</sup> - المرجع نفسه، ص140.
- 28 - محمد بوعزة: سرديات ثقافية، من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، منشورات الاختلاف، الجزائر، ص: 15.
- 29- المرجع نفسه، ص: 18.
- 30- المرجع نفسه، ص: 20.
- \* - للتوسع ينظر: المرجع نفسه، المبحث الثالث والرابع، ص139- 171.